كانت النزاهة عن الذم كرما والتجوز في المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف
في الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب روي
انه لما قدم علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ابن الاهتم عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس يا رسول
الله لقد علم اني خير مما وصفه ولكنه حسدني فذمه عمرو وقال يا رسول
الله لقد صدقت في الاولي وما كذبت في الاخري لاني رضيت في الاولي
فقلت له احسن ما علمت وسخطت في الاخري فقلت اقبح ما علمت فقال
النبي صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا على ان السلامة من الكذب في
المدح والذم متعذرة لا سيما اذا مدح تقربا وذم تحنقا حكي عن الاحنف بن قيس
انه قال سهرت ليلتي افكر في كلمة ارضي بها سلطاني ولا اسخط بها ربي فما وجدتها
وقال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه ان الرجل ليدخل على السلطان
ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط
الله تعالى وسمع ابن الرومي رجلا يصف رجلا ويبالغ في مدحه فانشا يقول
في معنى ذلك

اذا ما وصفت امرا لامرئ فلا تغل في وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنون فيه الى الامد الابعد
فيضؤل من حيث عظمته لفضل المغيب على المشهد

ومن ادابه ان لا يبعثه الرهبة والرغبة على الاسترسال في وعد
او وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما فان من اطلق بهما لسانه وارسل
فيهما عنانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل صار وعده نكثا و
وعيده عجزا وقد حكي ان سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام مر بعصفور
يدور لعصفورة فقال لاصحابه هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبي الله حول عصفورة
قال انه يخطبها الى نفسه ويقول زوجيني نفسك اسكنك اي غرف دمشق
شئت قال سليمان عليه السلام وكذب العصفور غرف دمشق مبنية
بالصخر لا يقدر ان يسكنها هناك ولكن كل خاطب كاذب ومن ادابه

١١٦

انه اذا قال قولا حققه بفعله واذا تكلم بكلام صدقه بعمله فان ارسال القول
اختيار والعمل به اضطرار ولان يفعل ما لم يقل اجمل من ان يقول ما لا يفعل
وقد قال بعض الحكماء احسن الكلام ما لا يحتاج فيه الى الكلام اي يكتفي
بالفعل من القول وقال محمود الوراق

القول ما صدقه الفعل والفعل ما وكده العقل
لا يثبت القول اذا لم يكن يقله من تحته الاصل

ومن ادابه ان يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده واغراضه فان كان
ترغيبا قرنه باللين واللطف وان كان ترهيبا خلطه بالخشونة والعنف فان
لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل
للمقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهوا وقد قال ابو الاسود
الدولي لابنه يا بني اذا كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام
من هو دونك فيزدروك ومن ادابه ان لا يرفع بكلامه صوتا مستنكرا ولا ينزعج
له انزعاجا مستهجنا وليكف عن حركة تكون طيشا وعن اساة تكون عجزا فان
نقص عن الطيش اكثر من فضل البلاغة وقد حكي ان الحجاج قال لاعرابي
اخطب قال نعم لولا انك تكثر الرد وتشير باليد وتقول اما بعد ومن ادابه
ان يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح
صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وادبه مصون وقال
محمد بن علي رضي الله عنه في تاويل قوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما
قال كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما انه يصون لسانه عن ذلك فهكذا
يصون سمعه فلا يسمع خنا ولا يصغي الى فحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره
وذريعة الى انكاره فاذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه
احد النكيرين كما ان استماعه احد الباعثين انشدني ابو الحسن
ابن ابي الحارث الهاشمي

وسمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به
فانك عند استماع القبيح شريك لقائله فانتبه

Copyright © King Saud University